إن كنت حملت حقائبك صوب واشنطن، فاحمل منها مثلي العدد الأول من مجلة فصلية جديدة لها اسم صريح: «المصلحة القومية» (ذي ناشيونال انترست). فإنها سوف تجعلك تفهم رونالد ريغان وهي قد تزيد مخاوفك من البلد الذي يحكمه.

لن اتوقف عند اسماء القيمين على المطبوعة ولو ان بعضهم معروف وذكراه ليست بالضرورة عطرة في الأنوف العربية: هنري كيسنجر مثلاً او جين كيركيباتريك الأول لنشاطه المحموم لغير ما فيه مصلحة بلدنا (كما قد يقول رشيد كرامي) والثانية لمواقفها المتعددة، وذات الوجه النسائي غير الخفر، في المنحى عينه. والى جانبهما عدد غفير من الكتبة المحترفين في الشؤون الاستراتيجية، تميز احدهم سابقاً بالالحاح على ضرورة احتلال الخليج، والثاني بنصائحه المتعددة باستعمال القواعد الأميركية في الاناضول لتنفيذ الهدف عينه. ومن المؤسف فعلاً لليبرالي

«مصلحتهم القومية» ومصلحتنا

مثلي ان يلحظ، على الرغم من عصرنته، ان عشرة من أصل الدزينة القيمة على المجلة، ينتمون الى الطائفة اليهودية.

كل هذا يمكن ان يكون هامشياً لولا النفوذ الهائل الذي يحظى به الخط الفكري الذي تمثله المجلة في الأوساط الأميركية، والذي يمكنك لمسه في تصريحات المسؤولين، وبرامج التلفزيون وتعليقات الصحف على السواء، والذي كاد ان يقارب الهستيريا مؤخراً خلال قضية السفينة آكيلي لاورو ومقتل أحد ركابها، ولكن ما هي عناصر ذلك الخط؟

أولاً: اهمية الايديولوجيا. في واشنطن ابتعاد لا يمكن تجاهله عما عرف به الأميركيون من استعداد دائم للبراغماتية، واهتمام بالافكار الكبرى التي تميّز المجتمع الأميركي. تقول المجلة بحماسة انها محافظة، وتقول بضرورة تثبيت فكر محافظ وسياسة محافظة (وكلمة رجعية احياناً أصح). طبعاً هناك من يقول ان هذه الايديولوجيا مهمة فقط كلامياً وغير ذات شأن في الواقع. لكنها هي التي ألهمت عدداً من المبادرات الأميركية البارزة كغزو غرانادا، أو كتأييد ريغان للهجوم الجوي الاسرائيلي على تونس او كالمحاولة العلنية لاسقاط نظام الحكم في نيكاراغوا او كخطف الطائرة المصرية التي كانت تقل ابو العباس ورفاقه. اعمال كهذه لا تتم في الخفاء على يد عملاء مخابرات بل في العلن ويتبناها الرئيس ويصفق له كثيرون، ويعيد انتخابه الأميركيون وبأي حماسة!

ثانياً: السياسة الخارجية الأميركية لا هدف لها سوى خدمة المصلحة القومية الأميركية. هذا يعني ان الميزان الأوحد للمبادرة الخارجية ليس حل المشاكل بل «الدفاع عن الأميركيين، وتحسين اوضاعهم، وتغليب افكارهم». حل النزاعات الاقليمية وتخفيف حدة العداء الأميركي ـ السوفياتي، ووقف موجة التسلّح واحترام المواثيق.. كلها امور لها ميزان واحد: المصلحة القومية. الواقع ان هذه النغمة لم تسمع منذ فترة طويلة وهي اذ تشير بوضوح الى تصاعد موجة المشاعر القومية، فهي تدل أيضاً على نوع من التراجع في مدى الرغبة بالتدخل بما ليس فيه مصلحة واضحة لواشنطن. ومن الطبيعي ان تثير هذه النزعة مخاوف الأوروبيين وهي تثيرها بالفعل.

ثالثاً: وعلى اية حال، فان العلاقات الدولية هي اساساً علاقات قوة تلعب فيها القدرة العسكرية دوراً حاسماً. هذا الكلام ليس جديداً هو الآخر، ولكنه لم يتم تبنيه منذ زمن بعيد، وبالتحديد فقد اعتبر عدد كبير من الأميركيين انه قضى عليه نهائياً في الادغال الفيتنامية. لا! التسلح سائر على قدم وساق والحماسة للمارينز على اعلاها. وتقرير معهد لندن السنوي الصادر مؤخراً يشير بوضوح الى ان تعاظم الترسانات العسكرية بدأ مؤخراً يتضاءل، لاسباب متعددة، في معظم انحاء العالم، باستثناء الجبارين والولايات المتحدة تحديداً حيث الانفاق العسكري على أشده.

رابعاً: الاتحاد السوفياتي هو عدو الولايات المتحدة الأول. من هنا فمن التفاهة التركيز على اعداء آخرين، لا سيما في العالم الثالث. الميزان الأول لعداوة طرف خارجي هو مدى علاقته بموسكو. بكلام آخر عدنا الآن بوضوح الى ايام جون فوستر دالس حيث كانت واشنطن ترى «يد موسكو» في اي تحرك خارجي معاد لها، حتى لو كان ذلك التحرك معادياً ايضاً للاتحاد السوفياتي او استقلالياً. والواقع ان المجلة ترى الاوضاع العالمية شبيهة اليوم الى حد بعيد بما كانت عليه في اواخر الاربعينات، اي في السنوات التي سبقت سياسة دالس واثبتتها.

□

ما هي الانعكاسات العملية لهذا المنحى؟

على الصعيد الدولي: موقف حازم لا بل عدائي للغاية من الاتحاد السوفياتي يصل لحد التشكيك بفائدة المفاوضات للحد من الاسلحة النووية، ورفض مبدأ الانفراج الدولي. ايرقنغ كريستول يريد العودة بالولايات المتحدة الى تحديد صارم لمصلحتها الذاتية. مما يعني انه على الايديولوجيا الأميركية المعادية للماركسية ان تكون فعالة في السياسة الخارجية الأميركية بقدر ما الماركسية فعالة في تحديد السياسة الخارجية السوفياتية. وعلى الولايات المتحدة الا تتلكأ في استعمال قدراتها العسكرية، أياً تكن تحفظات حلفائها. وعلى

الديبلوماسي كما على العسكري الأميركي ان يحدد الانتصار هدفاً له لا المساومة.

على الصعيد الداخلي، يعني هذا مزيداً من السلطات في يد الرئيس، وانتقاصاً حقيقياً لدور الكونغرس في لعب أي دور في السياسة الخارجية.

ويعني هذا المنحى ايضاً مزيداً من السلبية تجاه المنظمات الدولية اجمالاً، وتلك التي تلعب فيها الاكثريات دوراً اساسياً في التصويت.

ويعني هذا المنحى مزيداً من الدعم لكل من الثوار الافغان والمنتفضين في نيكاراغوا مع الاستعداد للمساومة لاحقاً على افغانستان (تحييدها) مقابل انسحاب سوفياتي شامل وواضح من شؤون اميركا الوسطى (الفكرة دافع عنها برجنسكي).

وهو يعني انخراطاً واسعاً للولايات المتحدة في اي نزاع يشنه ثوار معادون لسلطة يدعمها الاتحاد السوفياتي لا سيما كمبوديا وموزامبيق واثيوبيا ونيكاراغوا وهو يعني الانطلاق من فرضية ان الخطر السوفياتي الحقيقي لا يمس أوروبا بل يهدف ضرب الولايات المتحدة مباشرة.

قد يتأثر القارىء العربي بهذا وقد لا يتأثر. ولكنك تشعر، ان باب الاجتهاد في هذه المجالات الدولية مفتوح: برجنسكي مستعد للمساومة في افغانستان وكيركيباتريك تريد الحرب حتى النهاية ضد الوجود السوفياتي. ولكن عندما ينتقل الأمر الى القضايا التي تهم العرب، بالاجماع قائم ضد «المصلحة القومية» العربية، بصورة مثيرة للانتباه فعلاً، وتكاد تكون بدائية والعداء للعرب ينضح من كل المقالات ولا يفرّق بين عربي وعربي، ولا بين صديق لأميركا وعدو لها.

كريستول يقول ان نظرة العرب للأرض مرتبطة بافكار دينية غامضة. تاكر يرى ان واشنطن احسنت وتحسن بالتهديد الدائم بالتدخل في الخليج، على رغم كونه مبدئياً منطقة هامشية في حلبة الصراع الدولي. دوغلاس فايث يشن حملة مركزة على امكانية تطبيق قوانين الحرب على حركات التحرر في العالم (لا سيما منظمة التحرير الفلسطينية). وبينما لا يوفر أحداً من الكتاب الفلسطينيين، لا يتورع مارتين انديك عن التهجم على الأردن ولا دانيال پايبس من التهجم على سوريا. والقاسم المشترك بينهم جميعاً التماهي التام بين المصلحتين الأميركية والاسرائيلية. وهناك كاتب آخر يرى في قيام دولة اسرائيل المثال الأفضل لمتانة الارادة السياسية وصلابتها. وفي الموجز، فالمطلوب عدم التدخل في الشرق الأوسط قبل ان يهترىء الوضع الداخلي العربي بحيث يسهل على واشنطن التدخل لتكريس نتائج التفوق الاسرائيلي.

ولا تحسبنّ ان هذا التهجم على الاطراف العربية المحيطة باسرائيل (على خلافاتها)، يقابله تفهم لأوضاع الخليج. فهناك كاتب في العدد يخصص مقالا طويلا للقول ان الغرب، والأميركيون خصوصاً، خافوا أكثر من اللازم من النفط العربي ومن اوضاع الخليج السياسية. وهو يجد ان العودة الى مقولة «بالنهاية لا يستطيع العرب ان يشربوا نفطهم وسيضطرون لبيعه بأي ثمن»، امر معقول ويخلص الى ان تصدير النفط هو اساس قدرة دول الخليج، لذا «فلنستمر، من خلال السياسات الاقتصادية الحذرة، بضرب هذه القدرة».

□

«المصلحة القومية» عنوان الادارة الاميركية الحالية وأقصى المتفائلين لا ينتظرون انهياراً لهذا المنحى في القريب العاجل. فقد نرى استكمالا، بعد ريغان، اقل او أكثر تصلباً، ريثما يأتينا رقاص الساعة بمنحى جديد. وبالانتظار، تتدهور صورة العربي تدريجياً، بتدهور الاوضاع العربية نفسها بحيث لا يرى ريغان اي حاجة لبحث اي امر عربي مع نظيره غورباتشوف. ويقولها ضمناً عندما يسمّي المناطق المتنازع عليها ويقفز فوق اليابسة الممتدة من المحيط الى الخليج. فهو لا يريد عودة السوفيات الى منطقتنا، ولا يرى خطراً فيها يجعله يغيّر وجهة نظره.

تعود من واشنطن وانت تقول: راهن العرب على السوفيات وخسروا، وراهنوا على الأميركيين وخسروا أكثر وهم لا ينفكون يقامرون بأنفسهم ويخسرون. ◇

التهجم الأميركي على العرب لا ينصب على الأطراف العربية المحيطة باسرائيل فقط بل يطول عرب الخليج أيضاً فقاعدة التعامل الأميركي مع هؤلاء هي «في النهاية لن يستطيع العرب ان يشربوا نفطهم وسيضطرون الى بيعه بأي ثمن»!

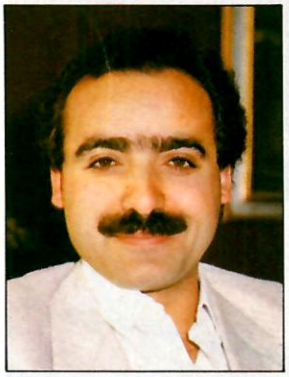

بقلم الدكتور : غسان سلامه

استاذ العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت.